الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد العرب

كتبت اليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم أكتب اليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها الى الرشيد . فانى لما قفلت من ديار الروم عرّجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملُها من لدن ابن الأغلب وفادتى ، وأخرج الىّ زورقاً حملنى عليه الى المدينة ، لأن البحر يبعُد عنها نحوَ عشرة أميال ، [1] وبينهما بحيرة قريبة الغَوْر فسبق اهتمامى باخراج الرِّمّة التى أوصانى بها القيصر الى مركَب الروم لابعادهم عن مرفأ المسلمين اهتمامى بما سواه من الأمور . ثم إنى نظرت فى شأن ابن الأغلب ابراهيمَ وانقطاع أهل الشيعة الى حَوْزة ادريسَ بن ادريسَ (رضى الله عنه) من غير أن أكشف عما بالنفس من الميل مع أهل البيت ، اذ كنت أوجبت على نفسى أن أقوم بصدق الخدمة للرشيد فى هذه الرسالة التى حمّلنى مجاشمها واستودعنى فيها أمانته ، فاتصل بى من أخباره معهم جسيمٌ حملت خبره الى ملوكنا البرامكةِ (أعزهم الله) . وقد أذكرنى حال العَلَويين فى المغرب أيامَ علىّ وأبى بكر وعمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنهم) من الصلاح والخير والبركة ، يتبعون الرسوم التى حفِظوها عن النبى (صلى الله عليه وسلم) ولا يقيمون أبّهة الملك الاّ ما تدعوهم اليه حاجة الخلافة ، وكذلك أهلُ الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظة على القراءة التى قرأها علىّ (عليه السلام) . إلاّ أن الأغلى (دمّر الله ملكه)

(١) تقويم البلدان ٣٨ و ١٤٣

ينقِم منهم أمر الدنيا والدين ، ولا ذنب لهم إلاّ أنهم يحرِصون على الخير والصلاح ويميلون مع أهل بيت السلالة الشريفة الطاهرة .

وهذه القراءة التى ينقِمها الأغلبيّ من أهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم فى صدر الاسلام واسالت من دماء المسلمين بحاراً بما تعصبوا له من الأغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة أُبيّ بن كعب ، وكان أهل الشام فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق وزعموا أنهم أخذوها عن المِقْداد بنِ الأسود ، وكان عثمان فى خلافته قد عقد مجلساً من الصحابة على أن يحمل الناس على قراءة واحدة فى جميع الأقاليم والأطراف ، فجمع الرِّقاع والأدراج واللخاف والعُسُب التى كان مكتوباً فيها القرآن الكريم ، وأمر بأن تحرق كلُّها وأن يُنْسَخ من الصحف التى كتبت فى خلافة أبى بكر (رضى الله عنه) ، وكانت مودَعة عند حَفْصَةَ [١] زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) أربعُ نسخ [٢] يبعث بها إلى الديار الاسلامية ، فتولّى نَسْخها زيدُ ابنُ ثابت الأنصارى [٣] وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومى . وقيل عبدُ الله بن عباس ومحمد بن أبى بكر [٤] وقال لهم عثمان إنْ اختلفتم فى شىء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلغتهم . [٥] ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة فى مكة والشام والكوفة إلاّ المصحفَ الذى كان فى المدينة فانه فقد فى الحرب التى أثارها يزيد بن معاوية .

---

(١) أبو الفداء ١ : ١٦٦ (٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥ (٣) أبو الفداء ١ : ١٦٦ وابن جبير ١٠٢ (٤) الكندى (٥) أبو الفداء ١ : ١٧٦

ولما انفصلت عن تونس ركبت البحر توًّا الى الاسكندرية وفى نفسى أن أبلغها فى عشرين يوماً ، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصت بنا السفينة على الأعقاب مسيرةَ بضعة أيام إلى أن هدأ ثائر النَّوْء وطابت لنا الريح ، فسرنا بمعونة الله إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس . والقُطْر المأنوس . لليال خلون من شهر شوال ، فلما طلع النهار انتصب أمامنا فى عِظَمِه وهَوْل مرآه[1] حتى كأنه عمود يَلْقَى القبة الزرقاء ، ويصل بين الأرض والسماء .

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرعٌ لا يُنال طويلُ

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن على بعد سبعين ميلا ، وربما قدّر الناس ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعاً ،[2] وهم يقولون إنّ بانيه الاسكندرُ الرومىُّ الذى ملك معظم الدنيا أو ملكٌ من خُلَفائه يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروباً صعاباً فى البر والبحر ، فبناه لارتقاب جندهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها . ويحدثون عن الوليد ابن عبد الملك الأموى[3] أنه سوّل له جَهَلَةُ قومه أن يهدِمه طمعاً فى الوصول إلى ماحوى جَوْفُه من الكنوز المخبّأة ، فشرع فى الهدم والدمار حتى قوّض جانباً من هذا المنار . ثم تعاظمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعيض

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٩ وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤ (٢) تقويم البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر علواً مما ذكراه يقول ابن الاثير فى حوادث سنة ١٨٠ انه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس المنارة وربما ذكر المقريزى شيأ من ذلك فى كتاب الخطط والآثار . ويقول القرمانى ٦ : ٦٤ أن طولها ألف ذراع الى غير ذلك (٣) المقريزى والمحاضرة ١ : ٤٣ والمستطرف ٢ : ١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥

به عنها فكف عن عجز لحِقـــه ولَوْمٍ نراه يستحقُّه . وكان مُقامى فى الاسكندرية عندعاملها الليث بن الفضل الأَيوَرْدىّ [١] ثلاثةَ أيام ، وكنت أحِبُّ مع ما لَقيت من أنسه ووجدت فيها من سَعَة العمران واستبحاره أن أمُدّ فيهـا بساط الاقامة لولا أنى خِفت فواتَ الحج ، فانصرفت عنها فى اليوم السابع من شوّال ، وكنت قد استقريت كثيراً من أماكنها المشهورة ، ووقفت على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش فرأيت أن أجمِّل الكتاب بذكره ليبقى فخراً للمسلمين فى استيلائهم على هذه المدينة التى ليس أعظم منها فى ديار الروم .

فى ذكر الاسكنـــدرية

الاسكندرية مدينـة تجارة من أعظم مدائن الدنيـا وأقدمها وضعاً وأحفلها بنياناً ، واليها المنتهَى فى المنَعَة والحصَانة ، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض ، والبحرُ محيط بها من جميع جهاتها ولذلك يصعب مَنالها على العدو وان لم يكن وراءها وعر ولا هضاب يتعزز به جانبها من البر ، [٢] ولقد كانت فى قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة [٣] فلما تبوّأها الاسكندر الرومى [٤] وصارت كرسىّ الملك بعـده تجللت بجلال الحضارة . وتحلت بحلل النضارة . واتصلت عمائرها تحت الأرض [٥] آزاجا يجتمع فيها المـاء كاتصالها فوق الأرض ، وأقيمت أسواقها فى نهاية من الابداع ، [٦]

(١) ذكر أبو لمحاسن ١ : ٥٢٢ انه كان عامل مصر فى ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة
(٢) يقول ابن خلدون فى المقـــدمة ٣٠٥ ضد ذلك وانه يسهل طروق العدو لها
(٣) المقريزى ١ : ١٤٧ (٤) القزوينى ٩٦ (٥) ابن جبير والمقريزى ١ : ١٥٠
(٦) ابن جبير ٣٦

وشوارعها فى غاية من الاستقامة والاتساع ، بحيث إن الغريب الزائر يسير فيها نهارَه أجمعَ فلا يضل[١].

ولقد لقيت فى كثير من أماكنها وطرقاتها عُمُداً وألواحاً من رُخام تحمل العامة على الظن بأنها هى إرَم ذاتُ العماد[٢] التى لم يخلق مثلُها فى البلاد ، وأعظم ما شاهدت فيها العمود المعروف بعمود السوارى[٣] وهو ماثل للعيان فى طَرَف المدينة تحُفُّ به غابة من النخيل ، وهو حجر صَلْد من الصوّان الأحمر ، يبتدىء من قاعدة غليظة وينتهى إلى تاج مكلل بالرسوم ، والناس يقولون إنه كان فى أعلاه قصر معلّق فى الجوّ لأهل العلم والرياسة ،[٤] وإنه كانت فيه خزائنُ كتب أحرقها عمرو بن العاص[٥] بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، إذ كتب إليه « الكتب التى ذكرتَها إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنها غِنًى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجةَ إليها فتقدّمْ باعدامها » ولكن هذا قول بعيد عن التدقيق والنظر . وظنى بهذا العمود أنه نصبه الروم معارضَةً للعُمُد التى اتخذها الفراعنة أمثال المسلات ، وطمعاً فى تخليد آثارهم فى مصر إلى انقضاء الدهر .

وقد رأيت أهل الاسكندرية إصحاء الذوق لِطاف الطباع والخُلُق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصَّبا عندهم واعتدال الحر والبرد فى إقليمهم ، على أن أكثرهم مهزولو الأجسام وُهْنُ البِنْية[٦] . ووجدت لهم تصرفا

---

(١) تقويم البلدان ١١٣ (٢) المقريزى والمسعودى وياقوت وابن جبير
(٣) ابن بطوطة ١ : ٣٠ والقزوينى ٩٧ (٤) المقريزى ١ : ١٥٩
(٥) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ والمقريزى (٦) المقريزى ١ : ٤٤

واسعاً فى التجارة ، [١] لأن المال موفور عندهم ، والخيرات تأتيهم من مصر وجميع الأمصار فيتصرفون فى الليل بالبيع والشراء كتصرفهم فى النهار ، [٢] وسمعت أنهم بلغوا من سَعَة العيش إلى أن بَنَوْا فى مدينتهم ألف حمام وأربعمائة مَلْهى واثنى عَشَرَ ألفَ دكان [٣] ، وهذا شىء من الكثرة لم يسمع بمثله فى البُلْدان .

أما المسلمون فى هذه المدينة فانهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت ، ويتعبّدون على مذهب الامام مالك ، [٤] ولكنهم يجهرون بالبسملة فى صلاتهم ويبتدءون بها عند الخطبة [٥] كأنى بهم قد اقتدوا فى ذلك بأهل الشام إذ كان الاتصال فيما بينهم مستمراً على غير انقطاع . وأما أهل الذمة فانهم يزيدون على أربعمائة ألف [٦] بين نصارى ويهود ، وهم يؤدون جزْيتهم إلى الرشيد ديناراً واحداً ميمونيّا [٧] بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين ، واستمرت على ذلك فى عهود الخلفاء السالفة ، وهم فى الاسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية إلاّ أن معظم سوادهم [٨] رومٌ يرجعون فى أمورهم إلى بَطْركهم بالقسطنطينية ، وقبطٌ ينكرون على الباب خلافته للمسيح ويرجعون فى ملتهم إلى بطرك لهم يسمى مرقص [٩] كرجوع المشارقة إلى بطركهم فى أنطاكية [١٠] كما مر فى موضعه من الكتاب .

وهؤلاء القبطُ هم أهل مصر الأولون ، وفى أيديهم الكنائس المعظَّمة

---

(١) المحاضرة (٢) ابن جبير ٣٩ (٣) المقريزى والمحاضرة ١ : ٥٩ والقرمانى ٥ : ١٣٧ (٤) المقريزى (٥) المقريزى ٣٣٤ (٦) ابن خرداذبه ١٢١ والمحاضرة ٥٩ والمقريزى ١ : ١٦٢ (٧) ذكر صاحب الأغانى ان هذه الدنانير سميت بالميمونية نسبة الى ميمون بن عامر ١٧ : ٧٢ (٨) المقريزى ٢ : ٤٩٢ (٩) ذكره المقريزى ٢ : ٤٩٣ (١٠) المسعودى ١ : ٢٧١

التى لا يوجد مثلُها عند الروم ، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين لها تحت ظل الأسلام . وأعظمها بيعتان إحداهما كنيسة مرقص [١] وهى بجوار الدار التى بناها الزبير بن العوّام ، [٢] فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات فى ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان [٣] قد مُوِّهَ سقفها بالذهب ، وصُوِّرت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفى جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث ، [٤] وارتفعت على دور المسلمين ، مع أن المطاولة عليهم فى البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضَوْن عن مجاهرتهم فى ملتهم بأشياء لو بدت منهم فى العراق أو الحرمين لجلبت عليهم الحَيْنَ فى أسرعَ من طَرْفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالانجيل واخراج آنيتهم إلى الأسواق وحمل صُلْبانهم على رءوس الرماح [٥] وغير ذلك مما لا ينقِمه منهم المسلمون ، [٦] وكأنهم إنما يتسامحون فى أمرهم تجنباً لاثارة السواكن أو طمعاً فى استمرار الخُلْطَة التى وقعت بينهم وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء . بل مودة وإخاء . وقد وقع لهم وأنا فى الاسكندرية موسِم عظيم يسمونه عيدَ الميلاد ، يتخذونه فى اليوم الذى ولد فيه المسيح (عليه السلام) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك ، [٧] وعادتهم فى هذا الموسم أن يُحيُوا ليلَهم كلَّه بالسرور ، ويُخرجوا آنيتهم إلى الأسواق ، وينوِّروا كنائسهم بالشموع المليحة الأصباغ . فكنت أرى كثيراً

---

(١) المقريزى ٢ : ٤٩٢ (٢) ذكرها ابن خلدون فى المقدمة ١٧٨
(٣) المقريزى ٢ : ٥١٩ (٤) القرمانى والمقريزى ١ : ١٦٢ (٥) المقريزى
(٦) المقريزى ١ : ٤٩٤ (٧) المسعودى ١ : ٢٧٢

من المسلمين يبتاعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها فى أزقة المدينة ، كأنهم يشاركون النصارى فى أفراحهم ، ويظهرون الأنس بهم إلى انقضاء العشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتأنقون فى صنوف الملابس من الخز والديباج والوشى الذى يصنعونه فى مدينتهم ، ويضرب به المثل فى جميع البلاد ، [١] ونوع من الكتان يتنافسون فى لبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المخيط منه بدرهم فضة [٢] وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة فى لباس المسلمين [٣] مثل ظهورها فى أهل الذمة ، فقد حدث الرواة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالحرير ، [٤] ولبس ثياباً بأربعة آلاف درهم وصلى فيها ، [٥] وكذلك حدثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوباً من الخز ، [٦] وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم لبسوا الثياب المهدبة ، [٧] فلا أرى موضعاً بعد هذا لأن يكون لبس الحلل الفاخرة محظوراً فى الشرع [٨]

الديار المصرية والنيل

توسع بى الكلام إلى ماخرجت به عن اقتصاص الرحلة ، ولكنى أعود إلى ذكر الأمور التى شاهدتها فى ديار مصر ، فانى ركبت من الاسكندرية أريد الفسطاط ثم أسوان ثم عيذاب إلى طرف الصحراء من ساحل البحر . فمررت بدمنهور وصا وبرما وطنتدة وقليوب فى أسرع

(١) الأغانى : ٥ ٧٦ (٢) المقريزى ١ : ١٦٣ (٣) تزيين الأسواق ٢ : ٥١
(٤) مجمع الأنهر ٩٤ (٥) مجمع الأنهر ٧٩٤ ونقل الشيبانى عن ابن جريج أن ابن عباس كان يرتدى برداء قيمته ألف درهم العقد الفريد ٣ : ٣٤٣
(٦) الزرقانى ٤ : ١٠٤ (٧) البخارى وغيره (٨) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤

مدة من الزمان . اذ ليس فى مصر جبل ولا مسلك وعر يعترض الركبان. وكانت العمارة متصلة فى طريقنا إلى الفُسْطاط ، ومن حولها اخضرار فى السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع . فأخبرنى من كان يصحبنى من لدن الليث أن البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعاً فى كل سنة ، فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، (١) أولها شهر أيب المعروف بتموز عند المشارقة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضِياعُها فى بحر من الماء لا سبيل إليها إلاّ فى الزوارق . وثلاثة أشهر مِسْكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر ، (٢) ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طيناً عَلِكا أسود فيه دُسومة صالحة للزراعة يقال له الإبْليز (٣) وثلاثة أشهر زمردة خضراء أولُها شهرُ طوبة الذى يمر بنا اليوم ينجُم فيه الزرع ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدئ من برمودة المعروف بأبريلس عند الروم فيتورّد الزرع ببلوغ الحَصاد . ويكون كسبيكة الذهب فى المنظَر .

وإنما يَجلِب الخيراتِ إلى مصر ويُخرج الزرع اليانع من أرضها الجُرُز ما يحمل إليها النيلُ من الطين ويفيض عليها من الماء فى أيام من السنة معلومات ، فكأنما تستعيض بالمنفعة منه عن الشتاء الذى يحبسه الله عنها رفقاً بمصالحها أن تختل ومساكِنها الطينية أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه (٤) « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرُزِ فنخرِجُ به زرعاً تأكل منه أنعامُهم وأنفسُهم أفلا يبصرون » فجعل الله عز وجل النيل

---

(١) المنوفى (٢) فى المسعودى ١ : ٢٧٢ أسماء الأشهر الرومية مثلما هى اليوم عندنا
(٣) عبد اللطيف ٣ (٤) المنوفى

من الغُمورة والاستبحار بحيث يكفى البلاد كلَّها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مَسيل ماء غيرُه، والناس يجمعون محاسنه فى ثلاثة[١]: الأول غُمُورته إلى أن يكون بحراً تسير فيه السفن. والثانى بُعد منفجَره إلى ما وراء الخط من جبال القمر. والثالث طِيبُ مسلَكه على رمال تروِّقه وتأخذ الممزوجات الغريبة منه. وإنّى وجدتُ له خَلّةً من الخير والبركة أفضلَ من هذه المحاسن هى أنه يُزْدَرَع عليه ما لا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم[٢] فكأيّن من نهر تجتمع فيه محاسن الغُمُورة وبعدُ المنفجَر وطيبُ المسلك ثم لا تحصل المنفعة منه مثلَ ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم.

وشأن هذا النهر المبارك فى الفيضان أنه يبتدئ بالزيادة فى شهر أيبب، والقبط يقولون إذا دخل أيبب. كان للماء ديبب.[٣] ثم يغلُظ فى مسرى وهو شهر آب، ويزيد بعد ذلك زيادةً عظيمة إلى أن يقف حدُّها فى منتصَف توت، وهو شهر أيلول المعروف بسبطمبر عند الروم، ثم لا يلبَث بعد ذلك حتى يتراجع بالانحسار وقد كفى الناس سِقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم[٤]

كأنّ النيل ذو فهم ولبّ ... لما يبدو لعين الناس منه

فيأتى حين حاجتهم إليه ... ويمضى حين يستغنون عنه

وصفوةُ القول فى هذا الفيضان أن منشأه السحبُ الماطرة[٥] إلى ماوراء خط الاستواء من تلك البِطاح، وللقبْط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها فى هذا الكتاب،[٦] وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه «قبل حدوثه»

---

(١) المقريزى ١ : ٦١ وتقويم البلدان ٤٥ (٢) ابن بطوطة ١ : ٧٧
(٣) المقريزى (٤) المقريزى (٥) تقويم البلدان ٤٥ (٦) راجع المجلد الأول من خطط المقريزى

من هبوب الريح فى أول يوم من بؤنة وهو شهر حزيران عند المشارقة وقد قرأت فى بعض الكتب أن هذا النهر هو نهر العسل فى الجنة ،[١] وأن حائداً اليهودى الذى تاه فى الأرض دهراً لم يستقر فيه بموضع وصل إلى الجنة مما وراء السودان[٢] فوجد أرضاً ذهباً وتُرَعاً ذهباً وتلاعاً ذهباً ،[٣] ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب . وهذا تصور لطيف كنت أقرأ مثله فى دواوين الشعراء فأحببت أن أذكره لك حتى إذا كنت بعيداً عن أن تعجَب منه من حيث الحقيقة فلا أقلّ من كونك تُعْجِب به من حيث المجاز .

ولما وصلت إلى الفُسْطاط نزلت على قاضيها عبدِ الرحمن بن عبد الله من وَلَد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،[٤] فلما أصبحت وكان يومُ الجمعة جَمَّعتُ فى جامع عمرو بن العاص الذى قاد الجيوش الاسلامية إلى هذه البلاد وانتزعها من يد المقَوْقِس كما هو معروف . وهو من المساجد المشهورة فى الاسلام حسناً وترويقاً وإحكامَ صناعة ، وجدت على حائطه القرآن الكريم مكتوباً على ألواح بيض من الرُّخام يقرأه الانسان وهو قاعد ،[٥] ثم زرت مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والأولياء والشريفات العلويات . ولما مالت الشمس ركبت الى موضع غربىّ المدينة يقال له الجزيرة وهو مجتمَع اللهو والنزهة لاحاطة الماء به ، وهناك المقياس الذى يعتبر به قدر زيادة النيل ،[٦] بناه سليمان بن عبد الملك الأموىّ فى آخر

---

(١) المقريزى ١ : ٥١ والزرقانى ١ : ٣٧٥ (٢) الاسحاقى ٢٦١ (٣) المنوفى
(٤) المحاضرة ٢ : ٨٩ (٥) القزوينى ١٥٧ (٦) المقريزى وابن جبير ٥١ والمسعودى ١ : ١٦٤

المائة للهجرة النبوية المشرَّفة ، وهو عمود رُخام أبيضَ مفصَّل على اثنتين وعشرين ذراعاً من الأذرع القديمة التى كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التى تزيد عنها بأصبع وثلثى أصبع ، [١] وهو مبنىّ فى موضع ينحصر الماء فيه فاذا انتهى الفيض إلى ثمانى عشْرةَ ذراعاً منغمرة فيه كان ذلك الغايةَ فى طيب العام [٢] .

وقد أخبرنى عبدُ الرحمن هذا القاضى النبيلُ ان ما يغمُره النيل بمصر يبلغ مئة ألف ألف فدان ، [٣] والفدان عندهم أربعمائة قصبة ، والقصبة عشر أذرع ، «وهو القدر الذى وجده هشام بن عبد الملك عند ما مسح البلاد » ، وكلُّها ذاتُ خيرات كثيرة . وغَلاّت وفيرة . مما يحمل الأنسان على أن يظن فى أهلها اتساعاً فى النعمة واسترسالا فى الطيبات من بسطة العمران ، غيرَ أن الأمر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامتهم الخمول [٥] وتولاهم الشقاء ، ولم ينفقوا المالَ الذى أعطاهم الله فى مطالب السَّعة ، بل دفنوه تحت أطباق الأرض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقّوا القلوب رفقاً فى جباية الأموال . فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئاً من الرحمة . وربما انقلبت الغاية إلى التثقيل عليهم فى الخَراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتداراً فى تكثير الجباية ما عرفنا مثلَه لغيرهم من ملوك الأمم .

---

(١) ابن خرداذبه ١٦١ والمسعودى ١ : ٤٠ والمقريزى ١ : ٥٩ (٢) ابن بطوطة ١ : ٧٨ (٣) المقريزى ١ : ٨٠ (٤) المحاضرة ٢ : ١٩١
(٥) المقريزى ١ : ٥١ قول الرحالة مائة ألف ألف فدان انتقده ابن المدبر بأن ما يزرع فى مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان .

فى وصف الأهرام

وفى غد اليوم الذى وصلت فيه إلى الفُسْطاط ركِبت الى أهرام الجيزة ،[١] وهى ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم[٢] غربىَّ النيل ، وهى من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطراً . وأبقاه على الايام أثراً . والعهد بجميع الأشياء يُخْشَى عليها من الأيام إلاّ هذه الأهرام ، فانها صَبَرت على طوارىء الحدْثان حتى راح يُخْشَى منها على الزمان . اثنان منها عظيمان وواحددونهما فى العظم ، وهذان الهرمان الكبيران متناهيان فى السموّ ، يُخَيَّل للرائى أنهما نَهْدان قد نَهَدا فى صدر الديار المصرية ،[٣] وهما مبنيان بحجارة بيض صَلْدة قد اقتُلِعت من مغاورَ تحت الأرض بعيدةٍ يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها . ولقد تقدمت إلى بعض من كان يصحَبنى من لدن السلطان أن يطلق سهما إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظةٍ وساعدٍ قوى فسقط السهم دون ثلثى المسافة ،[٤] أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلَّع مثلث الزوايا مربّعها ، يبتدىء من قاعدة عريضة ويضيق قليلا قليلا كلما ارتفع إلى أن ينتهى إلى سطح صغير يكون مبرَك بعيرين فى الهرم الصغير ومبرَك ثمانية فى الهرمين الكبيرين . وهذا نَمَط فى البناء يزيده متانة يقوى بها على ممرّ الليال .

أما السبب الذى دعا الفراعنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستترا

---

(١) عبد اللطيف ٥١ والشريشى ٢ : ١٠١ والمقريزى (٢) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب (٣) تقويم البلدان ١٠٨
(٤) ابن بطوطه ١ : ٨٢

تحت ظل الابهام ، فمن قائل إنها بنيت مستودَعا للعِلْم ، ومن قائا إنها اتخذت لتحجُز الرمال الثائرة من القفر على الفسْطاط ، وفى وجه من التاريخ أنها بُنيت لدفن الكنوز[١] واحتكار الحبوب لأيام يوسف عليه السلام،[٢] إلاّ أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للاشياء ، فانّ العِلْم لا تحفظه الحجارة ان لم يُسْتَودَع صدورَ الرجال ، وا ملَ لايحجُزه سدّ غيرُ متصِل العِمارة ، وبين الهرم والآخَر فرجةٌ واسعة المجال ، والحبّ لم يحتكره فرعون إلى دهر لا انقضاء له وفى موضع لا يقدِر منه أن يتناوله. ولست أظن إلاّ أن هذه الأهرام قد بنيت لُحُودا[٣] للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة الى هذه الدار ، ويُمَنّوْن بتحصين مدافنهم من عبَث الأدهار ليحفظوا فيها حُلِيَّهم وأموالهم إلى يوم النشر كما كان يصنع فى جاهليتهم أهلُ مصر إذ يحملون مع الأموات مالهَم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رَجْعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون[٤]

وقد قرأت فى بعض الكتب أن بانىَ الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد ، وجّه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنا بالبركة فى اعتقادهم وزَبرَ عليه « أنا سوريد الملكُ أكملت بناء الهرم فى ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له مُلكا مثلى فليهدمْه فى ستين سنة (وفى رواية ستمائة سنة) ، والهدم أيسر من البنيان ، وقد كسوته بالديباج الصِّرف فليكسُه هو بالحُصُر والحُصُرُ أهونُ من الديباج »،[٥] أماتوجيه

---

(١) المقريزى ٢ : ٢٢ (٢) المحاضرة ١ : ٣٤ (٣) المقريزى وتقويم البلدان ١٠٨ (٤) عبد اللطيف والمحاضرة (٥) ابن بطوطه ١ : ٨٢ والمقريزى والمحاضرة

زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو افتراض ليس للرد عليه موضع مع ما نعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم إياها . وأما الكتابة التى يعزونها إلى فرعون فانى لم أجد لها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحداً من الناس يقرؤها . حتى لو جاز أنها كتبت وقرأت كذا على الهرم ما صح أن تكون كسوته بالحصر مما يعجز عظماء الملوك ، وسعته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خطوة ، إنما المعجز فى هذه الآثار هو إحكام بنائها [1] بهذا الشكل البالغ النهاية فى الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شىء تتلاصق به من الكلس وغيره من المواد ، ولو أن نجاراً اتخذ صندوقاً من الخشب ما أحكم عمله [2] ووصل قطعه مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الابرة الصغيرة

ورب زائر يقف بهذه الأهرام فتشغله الدهشة بعظمها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لا أنكر أن الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضخام السلطة عظام الصول والحول . غير أنى تمثلتهم فى نفسى ملوكاً عتاة قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان ، واستخدموا العباد فى مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان . أو أنى أتمثلهم جبابرة قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه فى البر والأحسان . ولا انتفعوا به فى غرض من العمران . بل فعوا به حبالا شاهقة من الصوان . وليس فى أحد الأمرين منصرف عن لومهم أو لوم أوقعه عليهم ، فلئن أنفقوا المال فى غير سبيله لقد

---

(١) عبد اللطيف ٥٣ (٢) الابشيهى ٢ : ١٧٧

أسرفوا فى الملك ، ولئن قبضوا الأجور عن العملة بعد أن نهكوا أبدانهم بالعَنَت الشديد لقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان .

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر قامت كالصومعة [١] ومثّلت رأس آدمى وعنقاً بارزةً من الأرض فى غاية العظم يسميها الناس بأبى الهول ، ويزعمون أنها طِلِسْم الرمل لئلا يغلب على أرض الجيزة ، [٢] وهى تشهد لصنّاع ذلك الوقت من القِبْط بحذقهم فى فنون الرسم وصحة التمثيل ، لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على كبره ، وجعلوا عليه حمرة لايزال دِهانها محفوظا مع الحجر ، [٣] وكأن الزمان يُعيره رونقا وجِدّة ، حتى إنه ليُخَيَّل للناظر إليه أنه ذو مَسْحة من جمال وأنّ شفتيه تنفتحان للابتسام ، وقد أخبرنى حاجب الليث أنه كانت له لحية تكسّرَت على تمادى الأيام ، وأن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا ، [٤] الى حديث طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون ، فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد [٥] إنّ بمصر ثمانين كُورة فى كل كورة مدينةٌ عظيمة وفى كل مدينة آثارٌ حسان ، ورسوم باقية على ممر الزمان [٦] .

---

(١) المقريزى ١ : ١٢٢ وابن جبير ٥٠ (٢) القرمانى ٦ : ٥٥
(٣) عبد اللطيف ٥٩ (٤) عبد اللطيف ٥٩ (٥) المقريزى وكتاب المحاضرة للسيوطى (٦) قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشر منها فى سائر البلاد وباقيها فى مصر المقريزى والمحاضرة والقرمانى ٦ : ٥٥

الى عَيْذاب فجُدّة فالبلد الحرام

كان انفصالنا عن الفسطاط فى بُكْرَة يوم قارس بردُه ، وكانت العمارة متصلة فى طريقنا على شاطىء النيل ، فاجتزنا ببلد يعرف بمُنْيَةِ ابن خصيب [١] فيه الأسواق والمرافق والحمامات ، ثم اجتزنا ببلدة يقال لها أُنْصَنا وهى تبعد عنه بمرحلة طويلة [٢] فيها شجر اللبَخ [٣] الذى تصنع منه السفن ، وكثير من العُمُد والصخر المجمّل بالنقوش والرسوم ، وفى بعض الكتب أنها كانت مسكنا لسَحَرة فرعون ، [٤] ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز [٥] وهو يمتد من الفسطاط فما فوقه إلى جهات اسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنته مَلِكة يقال لها دلوكة وقاية لابنها من الوحش أن يهاجمَه فى مزاولة القَنْص ، [٦] مع أنّ الأقرب إلى العقل أن يكون بناؤها له خوفا من الآدميين وغزَواتهم لا من الوحوش التى يصح أن تكون فى هذا الجانب منه كما هى فى الجانب الآخر. ثم مررنا بمنفلوط فى البر الغربى [٧] وفيها قمح مشهور برزانة حبه [٨] ثم بأسيوط وهى من النيل على ثلاثة أميال ، فيها الأفيون المصرىّ الذى يُحمَل إلى سائر البلاد [٩] وهو عُصارة الخَشْخاش الذى يزرع فيها [١٠] وفيما جاورها من البلاد ، ثم

---

(١) ابن جبير ٥٤ (٢) تقويم البلدان ١١٥ (٣) المقريزى ١ : ٢٠٤
(٤) ذكر المسعودى ١ : ٢٨٤ الاسرائيليات من الاخبار بمعنى الحكايات التى لاطائل تحتها وربما كان هذا الخبر لاحقا بها (٥) المسعودى ١ : ١٧٢ والقرمانى ٥٧٦
(٦) المقريزى ١ : ٣٨ (٧) المسعودى ١ : ٢٧٢ (٨) تقويم البلدان ١١٣ وابن جبير ٥٧ (٩) القزوينى ٩٩ (١٠) تقويم البلدان ١١٥

ركبنا مرحلتين الى إخميم وهو بلد مشهور فيه البَرْبا العظيمة التى صُوِّرَ فيها ملوك مصر [١] وصورت فيها الأفلاك والكواكب حين كان النَّسْر الطائر فى بُرْج العقرب ، [٢] وهى مرفوعة من صخور منحوتة ، وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش ، [٣] وعليها سقف من الحجر مُغَشًّى بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مَغْرِزُ إبرة فيه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المُسْنَد لا يُعْلَمَ ما هو ، فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظائم الأمور ، لا إله إلاّ هو رب العرش العظيم .

ثم تمادى بنا السير من هذه البلدة الى دَندرَة وهى مدينة عتيقة يقال إنها من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام وفيها بَرْبا عظيمة من آثار الفراعنة يَحُفُّ بها نخل كثير ، [٤] وقد تحققت فيما رأيت بها وبغيرها من آثار القبْط صحةَ مَا نقلته الأخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضارة فى زمن كان به ظلام وجاهلية للناس ، حتى إن الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلاّ باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم ، وكذلك قومُ موسى (عليه السلام) لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلاّ بعد مُقامهم فى مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها . فتجد أنّ للقبط فى فلسفة التاريخ نكتةً شغلت عقول الحكماء من كل عصرٍ وأمّة ، حتى ذهب أفلاطون فى بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أتى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التى بلغوها من الأدب والصناعة ودلّت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم

---

(١) القرمانى ٦ : ٦٠ (٢) ابن بطوطه ١ : ١٠٤ (٣) القزوينى ٩٤ وابن جبير
(٤) المقريزى ١ : ٢٣٣

وإن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سِيَرهم وأسرارهم فلا لَوْم نوجهُهُ عليهم من قبيل التقصير أو الاهمال لأنهم لم يغفُلوا عما وجب عليهم نحونا من تأدية علمهم إلينا ، بل اجتهدوا بأن يستبقوهُ على الأيام صلة دائمة فيما بيننا وبينهم إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان «الحجر» ليأمنوا اتصاله بنا وافادتنا به الغرَض الذى شغلهم قبلنا من الحكمة والغوص على أسرار الطبيعة . وانما أفسد هذه الصلة علينا العفاء من سنّه الغَلَب فى الناس ، إذ يتعاقبون فى الأرض دولاً بعد دول وأجيالا تحيا بموت أجيال . وتحتاج لحفظ نوعها أن تُبيد الجيل الذى كان من قبلها وتُسْبل على آثاره سِتْر المَحْو والعَفاء ، وهذا هو السبَب الذى قطع الآخرين عن الأولين ، وعمّى علينا قراءة رموز لهم إنْ تَبْدُ لنا غوامضُها تفدْنا علماً واسعاً من حكمتهم ، ونَبأ صادقاً من سِيَرهم وأعمالهم . فكم رأيتُ لهؤلاء القبْط من صور على الحجارة مُودَعةٍ هذا العلمَ تنظر إلينا بعيون قد غابت تحت غبَار القِدم . وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لو لم يصمتها الوَجَم كأنى بها تنتظر أن نخاطبها بلسان تعرفه وإشارة تفهمها من رموز أهلها لتبيح لنا بما استودعوها من هذه الأسرار الثمينة .

على أن أكثر ما وجدت فى آثارهم من الصُّوَر (غيرَ الأوثان التى كانوا يعبدونها والحيوان الذى دخل فى ملّتهم بطريق التكريم إلى أن صار له تعظيمٌ يشبه أن يكون عبادةً والعياذ بالله من جاهلية الناس) إنما هو رسوم هيئاتٍ مختلفة لملوكٍ وسُوقة منهم تمثلهم فى معايشهم وأعمالهم وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشيائهم ، وليس بينها صورٌ تمثّل أناساً غيرَهم من الأمم مثلما نرى فى آثار الفرس الذين صوّروا اليهود والنبَط والكنعانيين

والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر أنه لم تكن لهم خُلْطةٌ مع الأمم ، ولا اتسعت لهم الفتوح فى دولتهم اتساعَها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خَلَدوا إلى السكون والدَّعَة بما كثُر لديهم من الخيرات وأغناهم مصرُهم عما سواه من الأمصار . وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بُلْدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تثمره باديتُهم الجدباء من نعمة العمران .

عَوْد إلى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقىّ ، وهى من أعظم مدائن مصر ،(١) فيها قبائل من عرب عَدَن وغيرهم ،(٢) وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلاّ قوص وأُسْوان وجهات بُلْبَيْس ،(٣) وربما كانوا فى أسوان أكثرَ منهم فى بادية قوص ، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قريش وقَحْطان ونِزار بن مَعَدّ من ربيعة ومضر ،(٤) وليس هذا أولَ عهد العرب بمصر ، فقد أنبأت الأخبارُ السالفة(٥) أنهم غَزَوْها فى عهود الفراعنة الأولين واستقروا بها زمناً فيما لا كِفَاءَ له من عز الدولة ونفوذ السلطان . وقوصٌ هذه المدينة فُرْضة التجار اليمنيين والمصريين والحبشيين ، وفيها جبال وحجارة يجرى فيها النيل من غير أن يكون ثمة سبيل لجريان السفن عليه ،(٦) (وهى المعروفة بالجنادل والصخور) فتنقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات

---

(١) المقريزى ١ : ٢٣٦ وابن بطوطة ١ : ١٠ (٢) تقويم البلدان ١١١
(٣) المقريزى ١ : ٨٠ (٤) المسعودى ١ : ١٩١ (٥) المسعودى
(٦) المسعودى ١ : ٤٧ وابن حبير ٦١

الحبشة إلى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع التجار فيها وتوارد الحُجّاج إليها فى ذهابهم وايابهم على مراكب النيل ،

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهى مفازة قاحلة لا عمارة فيها البتة ، فكنا نبيت فيها حيث جَنَّ الليل علينا [١] ثم نُفوِّز إلى ورود الماء من آبار أو مناهلَ لا نكاد نترك فيها جُرْعة ماء بعد سِقاية دوابّنا ، وكنت إذا أصابنا رَقْدة من حرٍ أجلس فى هَوْدج على ظهور الجمال وأُرخى عليه الأستار محركا للهواء فيهون علىّ احتمال عَنتها الشديد . إلاّ أن صَحْبى من لدن السلطان كان يبرِّح بهم العطش ويُجْهد دوابَّهم فى الأيام الآبتة ، لأن السَّموم كانت تنشِّف المياه فى الأسقية ، فكانوا يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبعرة فارغة من الأحمال ويُعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على الماء نَهَلا وعَلَلا حتى تمتلىء أجوافها ثم يشُدّوا أفواهها كيلا تجتر فتبقى فيها الرطوبة فاذا نشفت الأسقية نحروا بضعة أبعرة من هذه الجمال وسقَوْا خيلنا مما فى بطونها ، [٢] وفى هذا من المشقة ما لم ينزل بنا أشدُّ منه فى جميع ماطرقناه من البلاد ، ولم نزل فى مكابدة عنائه الشديد وقد أضرّ بنا الحرّ وأخذ منا مأخذَه حتى سهّل الله وصولنا بالسلامة إلى عَيْذاب ، والحمد لله على جميل ما أولاه . حمداً يبلغ رضاه . ويستفيض النعمة من علياه .

وهذه المدينة هى آخر بلاد مصر ، [٣] وعاملها مفوّض من لَدُن الليث ابن الفضل الأَيوَرْدى ، وهى موسَّعة بأسباب الكسب من الحُجاج إلاّ

---

(١) ابن جبير ٦٣ (٢) القزوينى ١٢ (٣) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٠٩

أن مبانيها أشبه ببيوت القُرى منها ببيوت المدن ، [١] وكل ما فيها مجلوب اليها حتى الماء ، [٢] وليس لأهلها حرفة للتعيش إلاّ تعميرَ سفن للحُجاج يسمونها الجُلُبات واحدها جُلْبة وهى ملفّقة الانشاء ، ولا يستعملون فيها المسامير وانما يخيطون الخشب بالليف ، ويضعون خلالها دُسُراً من عيدان النخل ثم يَطلونها بالشحوم والنُورة ، [٣] فتستمر عرضةً للخطر وآفةً لحجاج البيت ، يغرَق الكثير منهم بسببها فى بحر فرعون ذى الأهوال الموصوفة [٤]

ولما أخذت فيها نصيباً من الراحة ركبت البحر ثلاثةَ أيام إلى جُدّة ، وهى قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحُجاج ، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت فى ولاية الفرس . وفيها قبة مشيَّدة يقال إن موضعها كان منزلا لحوّاء (عليها السلام) ومسجد بناه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين ، [٥] وهى أحفل بناية فى المدينة ، فمكثت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت الليل إلى القَرِين وهو محطُّ رحال الحُجاج (اسراعا فى موآفاة الرشيد بالمدينة المنوَّرة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية) إذ كنت علمتُ بركوبه إليها من مكة فى صباح اليوم الذى وصلت فيه إلى جدّة ، فبلغته فى جوف الليل ثم سريت منه إلى مكة المكرَّمة مهوَى الأفئدة الصالحة ، فقضَيْت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهلت إلى الله تعالى فى موضع استجابة الدعاء [٦]

---

(١) تقويم البلدان ١٢١ (٢) المقريزى ١ : ٢٠٣ (٣) ابن جبير ٦٨ والمسعودى ١ : ٧٨ (٤) المقريزى ١ : ٢٠٣ وابن جبير ٧١ (٥) أى سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣ (٦) ابن بطوطه ١ : ٣٠٠ وابن جبير ٨٠

من البيت العتيق ، والحمد لله عزّوجل على أن شرّفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم

فى ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرّفها الله فانها بطن واد [١] بين الجبال تسع من الخلق مالا يعلمه إلاّ اللهُ سبحانه ، [٢] لأن الحُجاج الوافدين اليها قد يزيدون على مئتى ألف فى الموسم ، إذ كان الحج مفروضا على المسلم المستطيع فى العُمر مرة لقوله تعالى « ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا » ، [٣] فلو قدّرنا عدد الرجال بثلاثين ألفَ الف ، وقدّرنا العمر بأربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبُها منهم فى كل سنة أكثر مما ذكرنا ، فما بالك بمن يحج أكثر من مرة فى عمره ، ويقال فى اجتماع الناس اليها من جميع الأطراف إنه لو جُمِع ما يباع ويشترى بها من السِلَع والمآكل والبضاعات فى ثمانية أيام وقت الموسم لأقام الأسواق [٤] فى العراق كلِّه ونال كلُّ واحد من أهله نصيبَه من حاجته .

ولها كرّمها الله تعالى ثلاثةُ أبواب ، أولها باب المعلى [٥] وهو إلى الشرق الشمالىّ ، ومنه يذهب الذاهب إلى الحَجون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر فى الأشعار وفيه صَلب الحَجّاج بنُ يُوسف جُثَّة عبد الله بن الزبير لمّا غلبه على الخلافة التى كان يناصب عليها الأمويين . ثم بابُ المسفل وهو

---

(١) ابن بطوطه ١ : ٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧ (٢) ابن جبير ١٠٨
(٣) سورة آل عمران (٤) ابن جبير ١١٩ (٥) ابن بطوطه ١ : ٣٠٤ وابن خلكان ١ : ٣٩٨

إلى الجنوب ومنه دخل خالد بنُ الوليد يوم الفتح ، ثم بابُ العُمْرة وهو إلى الغرب على طريق الشام وأمامه جبالُ مكة قد مثَلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله ، أشهرُها جبل حِراء وهو الذى اهتز حين كان فوقه النبى (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقال له « أثبُت حِراءُ فما عليك إلاّ نبىّ وصِدّيق وشهيد »[1] وكان (صلى الله عليه وسلم) يختلف إليه ويتعبد فيه ، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهى قوله تعالى إقرأ باسم ربِّك الذى خَلَق [2]

وكفى هذه البلدة شرفا أنْ بناها آدم (عليه السلام) [3] وهبط اليها جبريل المَلَك الكريم ونزل فيها الوحى على النبيين وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التى هى معدن الطهارة ومظهرَ نور الملائكة مما ليس مثلُه فى جميع العالم . فما تبرّكت بزيارته من مواضعها الميمونة محلُ مولدّ النبى (صلى الله عليه وسلم) وقبّةُ الوحى [4] التى فيها بَنَى النبى (صلى الله عليه سلم) بخديجة أم المؤمنين (رضى الله عنها) والموضعُ الذى كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) ، تبركت بلمسه وتقبيله ، وزرت دار أبى بكر ودارَ جعفر بن أبى طالب ذى الجَناحين ودارَ الخَيزُران التى قدّمتُ لك ذكرها فى الرسائل السالفة ، وهى على باب زُقاق الخيزران بمقرُبة من القصر المعروف بمنزل الأبجر ، [5] وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التى فى الجبال والغارَ الذى أوَى إليه النبى (صلى الله عليه وسلم) المسمى بغار

---

(١) ابن جبير ١١٢ (٢) المسعودى ١ : ٣٠٧ وابو الفداء ١ : ١١٧
(٣) وربما لم يجده ابن خلدون خبراً صحيحاً كما فى المقدمة ٣٠٦ (٤) ابن جبير والازرقى (٥) الاغانى ٣ : ١١٦

ثوْر [١] الوارد ذكرُه فى القرآن ، ولكن لم يتيسر لى ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لى مزارُ بعض المواضع الميمونة التى هى فى نفس البلدة .

وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم (عليه السلام) حضينُ الملائكة لقوله تعالى (وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ » [٢] ، وقد أخذ الناس فى تعظيمه والحجِّ إليه من الجاهلية والفرس والعمالق والتبابعة وغيرِهم ممن دنا ونأى ، ثم صارت الولاية عليه بعد وَلَد اسماعيل إلى جُرْهُم وكانت سِدانة البيت ومفاتيحُه معهم ، وإلى ذلك يشيرُ مُضاض بن عمرو بن الحارث الجُرْهمى بقوله [٣] .

وكنا وُلاةَ البيت من بعد ثابت ... نطوف بذاك البيت والأمرُ ظاهر
كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكة سامر

ثم صارت ولايته إلى خُزاعة ثم إلى قريش بعدهم وكانت صورة إبراهيم واسماعيل ماثلة [٤] فيه لأيامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار إلى ذلك زُهَيْر بن أبى سُلْمى فى قوله :

فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حوله ... رجالٌ بَنَوْهُ من قريش وجُرْهُم

ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) إلى عبد الله

---

(١) ابن جبير والانس الجليل (٢) المقدمة ٣٠٦ والمسعودى
(٣) الاغانى ١٣ : ١٠٨ وابو الفداء ١ : ١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد الفريد ٣ : ٢٧ وفى مروج الذهب ١ : ٢٠٣ انه ثابت بن اسماعيل ولعل فى احدى الروايتين أو كتيهما تحريفا وفى هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالاياب المسافر

وفى العقد الفريد ١ : ١٣٩ أن راشد بن عبد الله أنشد هذا البيت وكان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم . (٤) المسعودى ١ : ٣٠٥

ابن الزبير (رضىَ الله عنهما) فنزع عن كُسْوته المسوحَ والأنطاع وكساه الديباج الملوّن واتخذ له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب ، وكان يطيِّبه حتى يوجد ريح المسك من خارج الحرم ، [١] فلما رماه يزيد بن معاوية بالمَنْجَنيق بعث إلى صَنعاء فى الفضة والكِلْس فحملهما ، ثم شرع فى البناء على أساس الخليل إبراهيم عليه السلام ، فما كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحَجّاج لقتاله بعد يزيد وحاصره بالزحف والترامى ، وأحرق مكة ورماها بالمَنجنيق حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل اللهَ السلامةَ من شرور الأنفس وسيئاتِ الأعمال ، فكتب إليه عبد الملك بنُ مَرْوان أن يعيد بناءها على الصفة التى بنتها عليها قريش [٢] فى أيام النبى (صلى الله عليه وسلم) قبل النبوة ، [٣] فبناها على ذلك الرسم وهى باقيه عليه إلى أيامنا .

وهذا البيت المكرّم مبنى بالحجارة الصمّاء السوداء مفروش بالرُّخام المجزَّع ، وفيه عُمُد ضخمة من الساج ، وسقفه مُغَشًّى بالحرير الملون ، وهو قريب من التربيع ، ونصفه الأعلى من الفضة المُذْهَبة [٤] وله أركان أربعة أولُها الركن الشرقىُّ الذى فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ولا يُدرى قدرُ ما استتر من الحجر فى الركن ، [٥] وسَمْته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد ، وقد وضعه النبى صلى الله عليه وسلم بيده [٦] على ما هو معروف عند الكل ، ثم الركنُ العراقىُّ وهو شمالىّ . ثم الركنُ الشامىُّ وهو غربىّ . ثم الركنُ اليمانىُّ وهو جنوبى . وارتفاع هذه الأركان ثمان وعشرون

---

(١) الابشيهى ١ : ١٥ (٢) المقدمه ٣٠٧ (٣) ابو الفداء ١ : ٢٠٨
(٤) ابن جبير ٨١ (٥) ابن بطوطه ١ : ٣١٣ (٦) المسعودى ١ : ٣٠٥

اما الاّ الركنَ الشرقيّ فانه يزيد عليها ذراعا فى الأرتفاع [١] لانصباب السطح إلى الميزاب . [٢] وطولُ الكعبة سبع وعشرون ذراعا ، [٣] وبابُها فى الصَّفْح الذى بين الركن العراقى والركن الشرقى على أحد عشر شبرا من الأرض ، وهو من الساج الملبَّس بالفضة والذهب المنقوش ، [٤] وطولُه ست أذرع وزيادة ، وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الاسود ويسمى ما بينهما المُلْتَزَمَ وهو موضع استجابة الدعاء يتزاحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت بحيث لا يخلو منهم ساعةً من نهار أو ليل ، وقد أخبرنى أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه خِلْواً من طائف به أو مصلّ ، وأخبرنى وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعائره المقدسة أنّ فى مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيما لها ، [٥] إذ كانت أول بيت وُضِع للناس فيه آياتٌ بيناتٌ « مَقامُ ابراهيم » ومن دخله كان آمنا .

وفى الركن العراقى المذكور باب يسمى بابَ الرحمة ينتهى بالراقى عليه إلى سطح البيت ، وتحته قبوٌ فيه حجر مُغَشًّى بالفضة [٦] تبرّكتُ بزيارته ولمسه وهو مقام ابراهيم الخليل (عليه السلام) وتحت الميزاب المذهب فى صحن الحجر قبر إسماعيل (عليه السلام) وموضعه رُخامة بل رُخامتان خضراوان فيهما نُكَتٌ يميل لونهما إلى الاصفرار [٧] حتى يُخَيَّلَ للناظر أن ذلك تجزيع بأيدى الصناع ، وإلى جانبه مما يلى الركن العراقىّ قبرُ هاجرَ

---

(١) ابن بطوطه ١ : ٣٠٧ (٢) ابن جبير ٨٠ (٣) الكنز ١٢١
(٤) العقد الفريد ٣ : ٣٥٩ (٥) القزوينى ٧٧ (٦) الماوردى ٢٧٨
(٧) ابن جبير ٨٦

أم اسماعيل عليه السلام وموضعه رُخامة خضراء أيضاً ، وفى مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بئر زمزم ، [١] وهى البئر التى شرِب منها الخليل عليه السلام [٢] وداخلها مفروش بالرُّخام ، وعمقها فيما يقال إحدى عَشْرة قامةً ، أربعٌ فَضاء وسبعٌ ماء ، وماؤها لمن شربه كما وردعنه «طعام طُعْم وشفاء سُقم » .

أما الحرم فانه يُحدق بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على عُمُد من الرُّخام ، [٣] وله صوامع سبع ، أكبرها فى دار النَّدْوة [٤] وأصغرها على باب الصفا ، وهو أكبر أبواب الحرم ، ثم بعده باب السلام وباب السِّدْرة وباب النَّدوة [٥] ، وشاهدت فى بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفاً بخط زيد بن ثابت الأنصارىّ ، [٦] نسخَه بأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثمان عَشْرَةَ للهجرة كما تقدم بيان ذلك ، ولا أدرى فى أى موضع كان قبل أن يوضع هناك ، لأنه لم يكن للحرم فى تلك الأيام جدار ، وإنما كان موضعه دوراً [٧] لم تتم زيادتها فيه إلا فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلاّ فى خلافة المهدىّ (رحمه الله) ، وهو الذى زينه بالرسوم ، [٨] وكتب اسمه فى مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذى صَنَع . ومما كُتِب على سارية منه خارجَ باب الصفاء (أمر عبد الله

---

(١) تقويم البلدان ٨٧ والشريشى ٢ : ١١٤ (٢) فى العقد الفريد ٣ : ٣٦٠ أن سقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان (٣) فى العقد الفريد ٣ : ٣٥٨ أن بين كل عمودين نحو عشر أذرع (٤) ذكرها الاتليدى ٧٦ (٥) ابن جبير ٨٩ والكنز ١٠٣
(٦) الكندى وابن جبير ١٠٢ (٧) المقدمة ١٠٨ (٨) ابن الاثير والخميس ٢ : ٣٣٠ وابن جبير ١٠٧

محمد المهدى (أصلحه الله) بتوسعة المسجد الحرام مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة فى وسط المسجد فى سنة سبع وستين ومائة »

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالى عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت فى طريق إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الأمصار . فوجدتهم [١] يقولون بالقيافة والزجر والعنقاء والبومة التى تأخذ بثأر المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية ، وبلغنى أن بجوارهم أعرابا لم يدخلوا فى دين الاسلام لا يختلفون عنهم إلا بتعظيم عيسى (عليه السلام) وينطقون بالجيم كافا مخففة فينادون الرجل يا ركل ،[٢] فوصلت من مكة إلى بطن مرّ [٣] وهو واد خصيب ذو عين فوّارة ، ثم عطفت منه الى عُسْفان وهى مدينة تَحُف بها الجبال وفيها كثير من شجر المُقْل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان [٤] (رضى الله عنه) ، ثم ركبت الى الخُلَيْص وهو موضع فى بسيط من الأرض وفيه خيام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كنانة وخُزاعة وهم متقاربون فى المنزل وبينهم نسبٌ لم تُرْمِ فيه العصا ، [٥] ثم امتد بنا السير من خليص الى بَدْر وهى قرية كثيرة الخيرات كانت بازاء موضع من مواضعها يقال له القليب وقعة النبى (صلى الله عليه وسلم) المباركة التى أعز الله تعالى بها الدين وقهر

---

(١) راجع مروج الذهب والأغانى وتزيين الاسواق (٢) الأغانى ٩ : ١٣٩
(٣) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥ (٤) ابن جبير ١٨٦ والأزرقى
(٥) تزيين الأسواق ١١٤

المشركين ،[١] ثم اتجهت إلى الصفراء فى صدر النهار ، وهى تبعُد عن بدر بَريدا ثم الى الرَّوْحاء وهى موضع بئر يقال فى الحكاية إن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان ،[٢] ثم رحت أفوز فى الهضاب والبِطاح حتى أقبلت على المدينة المنوَّرة حرسها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرَّم وصليت فى الروضة التى بين القبر المقدَّس والمنبر الذى كان موطىء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ركبت الى قصر الامارة حيث حلَّت ركاب الرشيد ، فأصبته فى مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصرٍ له فى بغداد يقال له قصر الفُرْجة ، وهو مزخرف بالصدف[٣] الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين الناظر ياقوتٌ وزَبَرْجد ،[٤] فلما وقفتُ بين يديه بادرنى بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلمنى به الأنبر ذور ، فأخبرته بما توسّم فى غايتها من الخير وما وجدت فى البلاد من عدل العمال ودعائهم له فى مساجد مصر والغرب ، وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالة الخلافة ، فشكرنى على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر إلىَّ ذلك الصفاء الذى كان يشرِّفنى به من قبل . ولما أذِن لى بالانصراف ذهبت إلى موضع البرامكة فوجدتُ فى نفوسهم ما وجدت فى نفس الرشيد ، ليس من تجافيهم إلىَّ عن المصافاة بل من إدمان فكرتهم فى أمرٍ ظننتُ أنه وقع بينهم وبينه فى المشاعر المباركة بحيلة المُدالسين . التى تصادف محلا فى قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتى إليك عن رسالتى إلى القيصر وأحب قبل أن أفارق

---

(١) ابن الأثير وأبو الفداء وابن جبير ١٨٩ والقزوينى ٥١

(٢) ابن جبير ١٩١ (٣) المقدمة ٣٥٧ (٤) ابن خلكان ١ : ٣٨٣

هذه المواطنَ المقدّسة أن أذكر لك شيئاً عن المدينة المنورة تبركا بذكره فأقول . إنى وجدت المسجد المكرم قائماً على أعمدة من الحجارة اللامعة، وسقفه من الساج المزيَّن بالرسوم ،[١] وجدرانه منزّلة بفصوص من الفُسَيفِساء[٢] تمثّل أشجاراً وثماراً وأزهاراً بأبدع ما يكون من الصناعة، وهى من عمل الروم والقِبْط[٣] فيما رسم لهم عمرُ بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك ،[٤] ووجدت الروضة التى تجاور القبر المقدّس مؤزرة إلى ثُلُثها برُخام بديع النحت غريب النعت ، وأعلاها مضمخ بالمسك والطيب ،[٥] ورأيت القبر المقدس مبنياً برُخام يقال إنه من عمل وَرْدان[٦] ، وعلى رأسه صُندوق من الآبنُوس مختَّم بالصَّندل مُصَفَّح بالفضة طولُه خمسة أشبار فى ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . وإلى طرف القبر مما يلى أقدام النبى صلى الله عليه وسلم رأسُ أبى بكر، أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجلى أبى بكر رضى الله عنهما ، وعليهما قناديل من فضة وذهب ،[٧] وبين الركن الجوفى والركن الغربى من المسجد موضع عليه سِتْر مُسْبَل يقال إنه مهبط جبريل[٨] عليه السلام .

أما المدينة المنورة فانها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بيَثْرِبَ بن وائل من ولد سام[٩] بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة

---

(١) ابن جبير والسيوطى (٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢ (٣) القزوينى ٧١ (٤) ابن الاثير ٥ : ٤ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ وابن بطوطة ١ : ٢٧١ (٥) ابن جبير ١٩٢ (٦) الأغانى ١٧ : ٨٤ (٧) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ٢٦٤ وتقويم البلدان ٨٧ (٨) ابن جبير ١٩٣ (٩) الاتفاق فى تفسير القرآن ٢ : ١٦٧ .

على قدم اختطاطها وعلوّ شأنها بين مدن الحجاز. ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد،[١] ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة،[٢] وفيها قصور لا يوجد فيما نقله السَّفْر المخبرو ماهو أعظم منها فى ديار العرب، وأعظمها قصرٌ للمِقْداد بن الأسود فى الموضع المعروف بالجرف،[٣] وهو مجصَّص الظاهر والباطن،[٤] وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكِلس وأبوابه من الساج والعَرْعَر[٥] وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم (شرفهم الله تعالى)[٦] وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة ابراهيمَ ابن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبورَ أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأولادِه ومشاهدَ أولاد علىّ (عليه السلام) وفى موضع هذه القبور رُخامةٌ مكتوب عليها[٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله مبيدِ الأمم. ومُحيي الرمم. هذا قبر فاطمةَ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدةِ نساء العالمين. وقبر الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما وعلىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم أجمعين». فيالها من قبور ما أشرفها وأكرمها.

وإلى مقرُبة من المدينة المنورة موضع يقال له قُباء[٨] وفيه كان مبرَك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعُه المسجد المبارك الذى أسس على

(١) ابن جبير ٢٠٠ (٢) ابن بطوطة ١ : ٢٦٨ (٣) المسعودى ١ : ٣٣٣
(٤) المقدمة ١٧٨ (٥) المسعودى ١ : ٣٣٥ (٦) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩ والمسعودى ٢ : ١٨٢ (٧) ابن جبير ١٩٨ (٨) ياقوت وتقويم البلدان

التقوى والرضوان ، [١] وفى صَحْنه شِبْهُ محراب على مصطبة يقال إنه أولُ موضع ركع فيه[٢] النبى (صلى الله عليه وسلم) وفى قبلتـه بئر معروفة ببئر أريس يقال إن النبى (صلى الله عليه وسلم) تفَل فيها فعاد ماؤها عذباً صافياً بعد أن كان آجناً أُجاجاً ، وفيها سقط خاتَمه صلى الله عليه وسلم من يد عثمان ابن عفان (رضى الله عنه) . هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والمواطن المقدَّسة والقليلُ دليلٌ على الكثير . وقد خصَّ الله تعالى تلك البقاعَ المبارَكة من الشرف والتكريم بما لم يخصَّ به غيرَها من البلاد . وهو مالك الملك لا ربَّ غيرُه ولا معبودَ سواه .

الرشيد والبرامكة فى مكة

هذا ذيل للرسالة أكتبه اليـك من ظاهر الحِيرة وأنا منفصل عن البرامكة فى كتاب أحمله إلى الرَّقة من لدن الرشيد لأعلمك ما بينه وبينهم من الأمر العظيم . كان انفصالنا عن المدينـة المنورة فى غد اليـــوم الذى كتبت فيـه هذه الرسالة ، وعلمت فيما نقـــل إلىّ أبو زَنْج الهَمَذانى صاحبُ جعفر[٣] (أيده الله) أنَّ الرشيد انما تحول عن البرامكة خوفاً من ميل الناس إليهم بما أغدقوا عليهم من الجود والكرم ، فانه كان إذا جلس فى مكة للعطاء جلس معه يحيى فأعطى مثلَ عطائه ، وإذا جلس الأمين جلس معه الفضلُ فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس المأمون جلس معه جعفر فأعطى مثلَ عطائه ، ثم استرسلوا هم وأولادُهم من بعدُ فى سَعَة

---

(١) أبو الفداء ١ : ١٣٢ (٢) ابن جبير ١٩٩ (٣) الأغانى ١٧ : ٣٣

الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مَثَلا بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة إلى صوغ الشعر فى مدحهم بالكرم ، وكانوا يقولون والله هذا عام الأعطيات [١] وينشدون .

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خُلِقت إلاّ لجودِ أكفّهم ... وأقدامُهم إلاّ لأعواد مِنْبَرَ

فأحدث ذلك فى نفس الرشيد غيظاً من تمام النعمة عليهم ، وانطلق المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة لتهويل أمرهم على الرشيد فخوّفوه استقواءهم بالمال والرجال واستعانوا برُقْعة رفعوها إليه وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الأبيات [٢].

قل لأمين الله فى أرضه ... ومن إليه الحلُّ والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا ... مثلك ما بينكما حَدُّ
أمرُك مردودٌ إلى أمره ... وأمرُه ليس له ردُّ
وقد بنى الدارَ التى ما بنى الـ ... ـفُرْس لها مِثْلا ولا الهندُ
الدرُّ والياقوت حَصْباؤها ... وتُربُها العنبرُ والندُّ
ونحن نخشى أنه وارثٌ ... ملكك إنْ غيّبك اللحدُ

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى مَنْ كان بمكة من بنى هاشم ، وبعث إلى المدينة يستقدِم أهل الحل والعقد ، وجدّد البَيْعة بمحضَرهم للمأمون بعد الأمين ، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقّبه بالمؤتمَن فصيّر ولاية العهد إلى ثلاثة من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعراء فى مديحهم له [٣].

---

(١) الفخرى (٢) ابن خلكان ١ : ١٥٢ (٣) السيوطى

أبو أمين ومأمون ومؤتمن أكرم به والداً برّاً وما ولدا

ثم إنه ولّى المأمونَ خُراسان وهَمَذان إلى آخر المشرق، وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم أنّ جميع ما فى عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكُراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شىء،[1] وضمّ إلى القاسم الجزيرةَ والثغور والعواصم، وفرّق فى الناس نحو ألف ألف دينار[2] ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحطّ من قدر البرامكة وما وقع فى نفوس الناس من انفرادهم بسَعَة العطاء دون غيرهم من خليفة أو سلطان. وهو يظن أنه يفعل هذا أمناً لمكروه من ناحيتهم وردًّا لمكيدة خافها من وراء ما كانوا يعارضونه من قبل فى قِسْمة الملك بين المأمون والمؤتمَن. مع أنهم إذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلاّ حباً فيه ومنعاً لوقوع الشقاق بين أولاده.

وكان مع ما فى قلبه من الموجِدة يصانعهم ويظهر استرسال نفسه إليهم حتى لا يفطُنوا إلى ما يريد بهم من المكروه، فإذا جلسوا إليه أظهر الرضا عنهم وأقبل بالعطف عليهم ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء. فكان يغرّهم ذلك منه الا جعفراً (حفظه الله)، لأنه كان أعلم الناس بما فى نفسه من حب الأَثَرَة حتى إذا أهداه مسروقاً غلامَه[3] قال لى والله إن فى إهدائه إلىّ هذا الغلامَ لحيلةً لم يخفَ علىّ أمرُها. فانه يوهمنا برضاه حتى لا نظن به سوءاً فيما داخله من الحسد، . وقد أخبرنى جبريل بن بَخْتَيْشوع أن الرشيد إنما تحوّل عنهم بتمحُّل الفضل بن الربيع الذى كان يذكر له ما على

(١) ابن الأثير ٦ : ٦٨ (٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٣) الأغانى ٣ : ١٤٠ والاتليدى ١٦٨

بابهم من الجيوش والأعوان ، ويخوّفه استقواءهم فى فارس وخُراسان وتعميرَهم خِطط الدولة بمن يعرفون فيه حباً لأهل البيت ، ويشكيهم لديه باحتياز مال الجباية[1] وتصرّفهم فى الأمور بما يشاءون ، والملوكُ لا تصبر على مثل ذلك فأوغر صدره خوفاً منهم بعد أن ملأ قلبه عداوةً لهم [2].

هذا ما اتصل بى فى مكة من أمر الرشيد بالبرامكة ، [3] وقد تحوّل عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة فى أحدهما . فأما استفحال ملكهم فى الاسلام وتزلُّفُ الملوك إليهم بالهدايا الفاخرة والأموال الطائلة فانه غير مضرّ بالرشيد وله بهم سند للدولة وفخرٌ فى الملة الا أن يكون ضعيف البصيرة فاتر الهمة ، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد بأن سيفهم خادمٌ لنصره . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد أن تولَّوْا المراتب خمسين سنةً فى الوزارة والولاية وقيادة الجيوش ، وليس فيه فىء من أموال المسلمين كما يزعم الواشون بهم إلى السلطان ، فكان أولى بالرشيد وأكرمَ لنفسه أن يذكر بلوغه المجد والصَّوْلة بهم لا أن يدِبّ فيه الطمع ويُمدَّ عينهُ إلى ما أدّخروا لولدهم بعد أن دبَّروا دولته هذا التدبير العظيم .

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفسِ الزكية لهم مقدار النُّفْرة التى وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لى جعفر انظر كيف أنه يركب هذا المركَب الوعر . ما كفاه أننا أقمنا ملكه ومهّدنا أمرهُ حتى صار يحسُدنا على ما آتانا الله من النعمة ، فو الله لئن لم يرجع عن غيّه ليكونن

---

(١) المقدمة ١٤ (٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢ (٣) فى الأغانى ٥ : ١١٣ ان الناس كانوا يتحدثون بتحول الرشيد عن البرامكة قبل نكبتهم بأيام

ذلك و بالاً سريعاً عليه [١] فقلت يا سيدى ليس للرشيد عنكم مرغَب ولا أظنه يحرِم دولته عنايتكم ، فقال تمهّل على نفسك ، إنّ لنا فارس وخُراسان ، فان يجاهرنا بالعُدوان يقم فى وجهه من يغالبه على السلطان . فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأثر أخذت فى تهدئة خاطره ، وقد كنت أعرفه سريع الرجوع عن غضبه ، فلم يهدأ ثائر صدره ، وانما أدمن الفكرةَ فيما يشغله من القلق ، وأمرنى بألاّ أفارق بابه فى ذلك الوقت .

وكان الفضل بن الربيع لا يفتر عن السِعاية به إلى الرشيد ساعة من ليل أو نهار ويخوّفه منه التحمُّلَ فى مؤامرة جارية بينهُ وبين الفرس ، فكان الرشيد يحتال باستبقاء جعفر عنده والميل اليه بتصنع العطف ليوهمه زوالَ ما بنفسه من الموجِدة ، وكان جلوسى إليه فى ذلك الوقت قد أقلقه كلّ القلق ، فرأى أن يفصِلنى عن البرامكة بوجه لا يُرَدُّ على الملوك بأن يوجهنى إلى الرَّقة فى كتاب من لدنه إلى عاملها ، وهو يقول لى إنّ بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى أنفاذك برسائلنا ، فكن عند رجائنا فيك ، فأدركت الحيلة من ذلك الأمر ، ولكن أشار إلىّ البرامكة ألاّ أخالف أمره حتى نطمع فى حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من إثارة خُراسان والمناداةِ بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالحيرة فى اليوم الذى نزل الرشيد فيه السفن إلى النَّهْر الذى بناحية الأنبار [٢] وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف فى ذلك الوقت حتى كان إذا تناول الطعام يَخشَى أن يكون فيه سم [٣] فاستبق

---

(١) الاتليدى (٢) ابن خلكان ١ : ١٥١ (٣) المسعودى ٢ : ٣١١

الأطباء على مائدته ممن كان مخالفاً للبرامكة إلاّ جبريلَ بن بختيشوع ،[1] وقد طوَى عنه سرَّ ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلاّ كلمةَ حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم ،[2] وأنا اليومَ أسير حثيثاً حتى لا يفوتَنى الرجوعُ إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكِب الحُجاج .

الرسالة العاشرة

« أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم نُسْقَى إذا انقطع الغمامُ »

أكتب هذه الرسالة إليك والدمعُ جارٍ فى الآماق ليس على البرامكة وهم أحياء فى الناس ، ولكن على الدنيا التى ذهب خيرُها وعفَّت البليةُ رسومَ محاسنها ، حتى كأنها طَلَلٌ من هذه الاطلال التى يهجُرها الأنس ولا يقف عندها إلاّ الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول إلى الرَّقة قد وافانى من قبل البرامكة رسول يستقدمنى إليهم ويعلمنى أن الكتاب الذى أحمله الى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقينى عنده ويمنعنى من الرجوع الى الحضرة لما داخله فىّ من الرِّيبة ، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الاشارة ، فأصابنى من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للحَيْن ، لأنى ما كنت أرانى ناجياً من وقوع الغدر بى ووصول المكروه الىّ . ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظَنة بى بعد أن أديت رسالته حقَّها من الاخلاص ،

---

(١) ذكر ابن خلدون فى المقدمة ١٦ أنه كان ينظر فى طعام الرشيد

(٢) الاتليدى والفخرى